الفصل الخامس والعشرون

نظرة عامة (تتمة)

بغداد — عمائرها — نمط البناء — بلاط الخليفة — الحياة الاجتماعية — الملابس — النساء — مركزهن — الموسيقى — الآداب — الفلسفة — العلوم والفنون — المذهب العقلى — إخوان الصفا

مدينة المنصور

كانت بغداد مركزاً للإدارات المدنيـة والعسكرية التى أتينا على وصفها فيما سبق ، كما كانت قلب الإسلام النابض ، وعين العراق ، ومقر الخلافة ، ومركز الفنون ، ومثابة الثقافة[1] والجمال .

ويقول لنا ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان : إن المنصور خط المدينة التى سماها باسمه مدوّرةً وجعل لها أربعة أبواب . وحفر حولها الخنادق ، وبنى على كل باب قبة بالغـة حداً من العلو يسمح بدخول الفارس وهو شاهر رمحه ، كما شيد حولها سورين من الداخل ، وبنى فى الوسط قصره الذهبى المعروف بالخلد ذى الباب الذهبى .

كذلك بنى على مقربة من قصر الخلافة المسجد الجامع ، وقصور الأمراء والأشراف ودواوين الحـكومة ، فأصبحت المهدية والمنصورية فى الواقع شبه دائرتين الواحدة على الشاطئ الأيمن لدجلة ، والأخرى على الشاطئ الأيسر ، وكان قطرهما يبلغ اثنى عشر ميلا ، كذلك كانت ضواحى المدينتين مليئة بالحدائق المونقة ، والقصور المنيفة الذرى ، والمتنزهات البديعة ، والأسواق العامرة ، والحمامات الجميلة ، والجوامع الفخمة ، وجميعها تقع على جانبى النهر ، وكان سكان

---

(١) ياقوت الحموى .

بغداد وضواحيها — وهى فى أوج عظمتها — يبلغون المليونين عدًا ، وكانت المهدية أفخم من المنصورية . أما قصر الخلافة فكانت تكتنفه حديقة غناء تبلغ مساحتها مسير عدة ساعات ، وعلاوة على معرض الوحوش الكاسرة ، والأطيار المغردة الملحق بحديقة القصر ، كان ثمة حظيرة للحيوانات الوحشية المعدة للصيد والقنص ؛ أما فناء القصر فكان مزدانا بالحدائق الحاوية كل منظر رائق من النباتات والأزهار والأشجار والأحواض ، وقد نصبت حولها التماثيل الفخمة .

وكانت تخترق المدينة على جانبى النهر الشوارع الفسيحة بعرض لايقل عن الأربعين ذراعا . وتحدثنا الرواية العربية أن بغداد كانت مقسمة إلى مربعات يقوم على رأس كل مربع « ناظر » يضطلع بالإشراف على النظافة وراحة السكان كذلك كان يقف فى زاوية كل شارع حارس مسؤول عن حفظ النظام ، والمعروف أن أحد الشوارع الكبيرة أطلق عليه اسم المأمونية ، وقد كان فى غاية الاتساع يمتد من نهر المعلا إلى باب الأزج .

أبواب المدينة

ومن بين الأبواب العديدة التى كان ينفذ منها الداخل إلى المدينة الغربية : (١) باب الشماسية (٢) باب القز (٣) باب البصرة (٤) باب الدير (٥) باب الشام (٦) باب البستان (٧) باب الطاق (٨) باب شيراز (٩) باب الخيزران (١٠) باب الصبيان (١١) باب التين (١٢) باب الأزج .

كذلك شيدت فى ناحية المهدية خمسة أبواب أسمها : (١) باب الغرابة (٢) باب سوق التمر (٣) باب النوبى ، وهو الباب الذى كان يقبل عتباته السفراء (٤) باب العامة (٥) باب المراتب .

وكانت جداول المياه ، وأبواب المدينة يقوم على حراستها ليل نهار جنود يقفون فى الأبراج المشيدة على كلا جانبى النهر . وكانت الدور تأخذ كفايتها من الماء الذى كان ينساب فى الجداول الممتدة على طول المدينة ، كما كانت الشوارع تكنس وترش بأحسن انتظام ، ولم يكن ليسمح قط بإلقاء الأقذار على جانبى

الطرق أو الأزقة ؛ وكان يعلو إيوان قصر الخلد قبة حضراء يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا ، تبدو كأنها تاج العاصمة وشعار العباسيين ، وقد ركب فوقها تمثال فارس و بيده رمح طويل[1] .

ميدان

كان القصر الملكى المنيف الذرى يطل على ميدان فسيح يسمى «بالمرمة» وكان يستعمل لاستعراض الجيش والتفتيش والحلبة ، وكان ذلك الميدان وجميع الشوارع تضاء بالمصابيح ليلا ؛ والمعروف أن المنصور كان يستعرض الجيش وهو لابس حلتـه العسكرية الكاملة ، إما واقفاً على مصطبة أو جالساً على عرش ينصب خصيصاً لأجل هذه الغاية ؛ أما الرشيد والمأمون والمعتصم فكانوا يعرضون الجيش وهم ممتطون صهوة جيادهم . وكان العرب مولعين أشد الولع بالحلبة التى لم يكن شغف أهل بغداد بها يقل عن شغف أهـل دمشق فى العصر الأموى ، كذلك كانوا يلعبون لعبة البولو الفارسية (الشوكان) فى بغداد .

وكان فى المهدية ميدان فسيح تعرض فيـه الجنود الذين كانت ثكناتهم تطل على الضفة اليسرى للنهر ، وكانت المصاطب الطويلة الممتدة على جانبى أبواب المدينة يجلس عليها الأهلون ليأخذوا فى المسامرة والمحادثة ، أو لمشاهدة جموع المسافرين والقرويين الذين كانوا يتدفقون على العاصمة من كل حدب وصوب . وكان لكل طائفة من طوائف الأجانب فى العاصمة رئيس أعلى يمثلهم عند الحكومة من جهة ، و يسدى إليهم المساعدة من الجهة الأخرى كما هرعوا إليه كذلك كان مسؤولا عن سلوكهم وحسن سيرتهم وتصرفهم .

قصور بغداد

كانت بغداد تسمى بحق مدينة القصور المشيدة بالمرمر ، وكانت العمائر —

كانت ثمة خرافة هى أن السلطان إذا رأى أن ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها علم أن بعض الخوارج يظهر فى تلك الجهة فلا يطول الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجيا قد نجم فى تلك الجهة .

غير أن ياقوت يقول بأن هذه القصـة ليست إلا خرافة ومحض أكاذيب ، وقد انهارت القبة والتمثال فى ليلة ماطرة شديدة الرعد فى زمن المتقى (٣٢٩هـ — ٩٤٠م) بعد أن قاومت مائة وتسعين سنة .

وإن لم تكن تختلف فى تشييدها ونمط بنائها عن عمائر دمشق — مؤلفة من عدة طبقات ، وكان تأثير الذوق الفارسى ظاهراً جليا فى زخرفها ، وكانت تعلق على النوافذ والأبواب ستور مزركشة وحرائر مشجرة ؛ أما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة ، والمناضد الثمينة ، والمزهريات الخزفية ، والمرصعات والمذهبات البالغة حد الإتقان والإبداع . وكانت قصور الخليفة تتألق بالجواهر البراقة ، وقد سميت إيواناتها البديعة بأسماء زينتها ، فعرف أحدها بدار الشجرة لاحتوائه على شجرة مصنوعة من الذهب ، مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وقد وقفت على أفنانها أنواع الطيور المصنوعة من الذهب والفضة ، كذلك كان ثمة إيوان آخر يسمى « بإيوان الفردوس » تتدلى من سقفه الثريات الفخمة المطعمة بالجواهر ذات الألوان والنقوش البالغة حد السحر والبهاء . وقد كانت قصور العظماء المنيفة[1] تطل على النهر من كلا الجانبين ، وقد اكتنفتها الحدائق الغناء والبساتين المونقة ، والسلالم المرمرية المؤدية إلى حافة النهر الذى يفعم النفوس بالفتنة والإعجاب ، وذلك أن العين لم تكن لتقع إلا على ألوف الزوارق المزدانة بالأعلام التى تنعكس ألوانها على مرآتها المجلوة ، وهى تحمل ركابها المرحين من محل إلى آخر ، فى حين كانت ترسو على الأرصفة الممتدة إلى عدة أميال على ضفاف النهر الأساطيل الكاملة والسفن البحرية والنهرية من كافة الأحجام والأنواع .

الجوامع

اشتهرت المساجد الجامعة فى ذلك الحين بفخامة البناء ، وقد نافست إن لم تكن قد بزت مسجد الوليد بدمشق فى الإبداع الهندسى وفخامة الزخرف ، وقد كان فى كل حى من أحياء المدينة — علاوة على المسجد الجامع — مسجد خاص كما كان لكل مدينة فى جميع أنحاء الإمبراطورية مسجد جامع بالغ حد الإبداع فى الزخرف والبناء .

---

(١) يقول ناصرى خسرو وذلك فى القرن الحادى عشر : إن جانبى النهر حتى مدينة الأبلة كانا مزدانين بالقصور والحدائق والبساتين .

الكليات والمستشفيات

كذلك أنشأ العرب فى العاصمة والحواضر كليات ومستشفيات وملاجئ[١] لكلا الجنسين ، وكان يرأس الكلية عميد مستقل فى عمله . أما مستشفيات الدولة فكانت تحت إشراف أطباء مشهورين ، وقد كان أبو بكر الرازى[٢] يشغل هذا المنصب فى عهد المكتفى ؛ ويلوح لنا أنه كان لكل ملجأ قاض غير أنه يصعب علينا فى الوقت الحاضر معرفة كنه الواجبات التى كانت ملقاة على عاتق هؤلاء القضاة ، كما بلغت الكلية النظامية التى شيدت فى عهد نظام الملك فى سنة ١٠٦٧ م والمستنصرية التى شيدها المستنصر بالله سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) شأواً عظيما من الشهرة والكمال فى العالم الإسلامى ، هذا عدا الكليات القديمة التى لم تكن لتقل عنهما شهرة ، وكان الطلاب يفدون عليها وعلى الكليتين الجديدتين من سائر أنحاء العالم ، كذلك كانت حواضر الولايات الأخرى تنافس العاصمة فى كلياتها التى كانت تشيد تحت رعاية الخليفة أو أحد أعيان[٣] المدينة .

وكانت مواكب العباسيين تتشح دائماً بأثواب من الروعة والبهاء ، وتحدثنا الرواية العربية أنها فاقت مواكب الخلفاء الأمويين مع ما اشتهرت به من الرونق والبهاء ، إذ كان رجال الحرس الملكى يسيرون ببزاتهم الفخمة فى بادئ الأمر بين يدى الخليفة ، ثم صاروا يمشون بعد ذلك بين يديه بالسلاح ؛ وكان الهادى العباسى أول من أدخل هذا النظام ، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يجنحان إلى البساطة فلم يكن يصحبهما غير حارس أو حارسين . وكان موكب

(١) دار الشفاء أو المارستان ، وكان المستشفى الذى بناه نور الدين محمود فى دمشق وسمى باسمه المارستان النورى بالغاً حد الفخامة كذلك كانت توجد مستشفيات للأمراض العقلية فى سائر أنحاء البلاد .

(٢) توفى سنة ٩٢٣ م .

(٣) وكان فى كل من هراة ونيسابور كلية نظامية أسسها نظام الملك ، كما أن صلاح الدين كان قد أسس كلية فى القدس وسميت بالناصرية ، وكان فى دمشق عدة مدارس أشهرها مدرسة الرواحية ومدرسة ست الشام أسستهما أخت صلاح الدين ، وكان فى الموصل المدرسة النورية والمدرسة الزينية والمدرسة العلية الخ .

الخليفة وعلى الأخص فى يوم الجمعة[١] والأعياد عند ما كان يقصد المسجد الجامع للصلاة تغمره الأبهة والجلال ، فكان يتقدم الموكب الغلمان أى (رجال الحرس) على اختلاف طبقاتهم يحملون الأعلام والمقارع والطبر زينات المحلاة[٢] بالذهب ثم يليهم أمراء البيت المالك على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطياً جواداً ناصع البياض و بين يديه الأشراف وكبار رجال الدولة ، ثم يأتى بعدهم بقية الغلمان . وكان الخليفة فى تلك المواكب يلبس القباء الأسود أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة و يتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، و يتشح بعباءة سوداء ، و يلبس قبعة عالية مدببة تسمى بالقلنسوة[٣] وقد زينت بجوهرة غاليـة و بيده قضيب النبى (ص) والخاتم ، وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة ، أما القباء فكان مفتوحاً عند الرقبة فيبدو القفطان من تحتـه زاهياً ، كما كانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذى أمر بجعلها فضفاضة ، و يقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع .

حفلات الاستقبال

وكانت مجالس الخلفاء التى كان يقلدها الأشراف والولاة فى جميع الأمصار تعقد فى فيض من البذخ والروعة والبهاء ، ولم تكن مراسيمها تختلف عما كانت عليه فى العصر الأموى ؛ فكانت الإيوانات الثلاثة المخصصة للاستقبال يجلس فيها رجال البلاط والأعيان ، وقد علقت على أبوابها الستور المزركشة ، وكان الخليفة يجلس فى الصدر على العرش و بين يديه مائة من صفوة الحرس فى أثواب زاهية وأزياء باهرة شاهرى السلاح ، كما كان يقف حوله يمنة و يسرة أشراف

---

(١) كان الخلفاء العباسيون لا ريب أكثر ثقافة من الأمويين ، إذ كانوا باستثناء عدد ضئيل جدا يرأسون صلاة الجمعة ويلقون الخطبة المعتادة .

(٢) كانت آلات الفرقة الموسيقية عبارة عن النفير (البوق) والدف والطبل والمزمار .

(٣) قد استرعى حجم وشكل لباس الرأس انتباه المستشرقين أمثال دوزى ولين ودسلين ونعتقد أنها كانت قبعة عالية مدببـة من جلد الغنم سوداء اللون ، وقد أخذت القلنسوة على ما يظهر عن القبعة الفارسية القديمة ، وكان المنصور أول من لبسها وقد صغر المستعين بالله حجمها فيما بعد ، ويقول الزمخشرى بأن القلنسوة هى الكلة الفارسية .

الدولة والأمراء والأعيان ، وعند ما كان يرفع الستار الشفاف كان ينادى الحاجب باسم من يريد إدخاله فيقوم بتأدية الخدمة [١] والدعاء بحضرة الخليفة ، ثم يقف جانبا . أما المجالس الخاصة فكانت مقصورة على الأشراف وأمراء البيت المالك والعلماء ، وكان يراعى فى هذه المجالس خلوها من الحرس ورجال الجيش المسلحين وفيها كان يجلس ولى العهد على أريكة تنصب له خصيصاً بالقرب من عرش الخليفة ، بينما كان رجال البلاط يجلسون فى صفين على جانبى العرش حسب درجاتهم ، وكان الخليفة يحادثهم أحسن محادثة ، كذلك كان الأطباء والفلكيون يروون أحدث اكتشافاتهم ، والشعراء ينشدون قصائدهم . كما كان السياح يقصون أعجب ما رأوه فى رحلاتهم . ومما جرت به العادة فى شهر رمضان أن يدعو الخليفة إلى مائدته كبار موظفى الدولة أو يكلف وزيره أن يقيم لهم المآدب الفخمة ، كما كان يدعو فى عيد الفطر أشراف العاصمة فتنصب الأرائك فى صدر البهو لكى يجلس عليها بعض كبار الدولة ، أما إذا حضر الخليفة فكان أمراء البيت هم الذين يقومون بخدمته .

الملابس

كذلك كان العظماء والأشراف بطبيعة الحال يقلدون الخلفاء فى طرز اللباس غير أن الفقهاء والقضاة [٢] كانوا يلبسون العمامة والطيلسان إقتداء بالنبى (ص) أما العلمانيون — إذا جاز لنا أن نسميهم كذلك — فكانوا يلبسون القلنسوة وحدها ، وتحتها كلوتة من الحرير الأبيض ، ولكنهم اقتصروا فى لبسها على داخل البيت فحسب ، وقد استعاضوا عنها فيما بعد بكلوتة خفيفة بنفسجية ، ثم استبدلوها فى العصور المتأخرة بالطربوش . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية

---

(١) كان من عادة العرب أن يحيوا الخليفة بوضع اليد اليمنى على الصدر وإحناء الرأس قليلا ثم رفع اليد إلى الجبهة ولم يمارسوا العادة الفارسية بإحناء الرأس والتطامن والبلوغ إلى حد الركوع وتعفير الوجه وتقبيل الأرض لأنها لا تتناسب وروحهم الاستقلالى .

(٢) كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص مبطنة وطيلساناً أسود ، وأول من غير لباس العلماء أبو يوسف قاضى الرشيد (ابن خلكان ص ٢٠٣ ج ٢) . (المعرب)

فى العهد العباسى يشتمل على سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان ، وقباء وقلنسوة مع عباءة أو جبة ، وكان الأغنياء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد و يسمونها «موزاج» ، وكانت ثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار (بنطلون) وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قمر بند » ، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال . أما الجنود خاصة فكانوا يلبسون الأحذية فى حين كان بعض الأعيان ينتعل كليهما فى وقت واحد ، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجى المسمى « بالجرموك » عند دخول المساجد أو القصور .

ملابس النساء

تطورت ملابس النساء فى العهد العباسى تطوراً محسوساً عما كانت عليه فى العصر الأموى[1] إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية لغطاء الرأس «البرنس» المنضد بالجواهر والمحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، و يعزى ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » أخت الرشيد ؛ وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب[2] بزنار البرنس للزينة ؛ أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رؤوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، و يلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، وكان هذا اللباس بالغاً حد الأناقة والبهاء ، ولهذا ظل مستعملا حتى زمن متأخر جداً كذلك كن يلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ، ولم يكن يجهلن أدوات التجميل ؛ ومن الجلى أنهن أخذن فن صبغ الشفاه والخدود عن الفارسيات اللواتى كن يستعملنه منذ أقدم العصور ، مع أن نقطة الحسن الاصطناعية كانت مما يتجمل بها الأعرابيات . وكان من أوصاف الفتاة الجميلة

---

(١) كانت الست زبيدة كزوجها تؤثر على طرز اللباس فى عصرها ، ويعزى إليها اختراع الأحزمة والنعال المرصعة بالجواهر .

(٢) مع أن ملابس الرجال تغيرت تغيراً عظيما فى القرون السالفة ، فإن طراز لباس النساء لم يدخل عليه تغيير يذكر .

أن تكون طويلة القامة ، نحيفة القوام ، متناسبة أعضاء الجسم ، بيضاء البشرة ، ذات عينين واسعتين سوداوين[١] .

مركز المرأة

لم يكن مركز المرأة فى العهد العباسى يختلف عما كان عليه فى العهد الأموى ، إذ لم يعمم فى الواقع نظام إقصاء النساء إلا فى عهد « القادر بالله » الذى عمل أكثر من غيره من الخلفاء المتأخرين على تعطيل نهضة العالم الإسلامى ، وتحدثنا الرواية العربية أن ابنتى عم المنصور سارتا فى عهده إلى ميدان القتال ، واشتركتا فى إحدى المعارك الفاصلة التى دارت بين الجيش العباسى و بين مروان الأموى ، كذلك كانت بعض السيدات فى عهد الرشيد يمتطين صهوات الجياد ، ويقدن الجنود إلى ميدان الوغى ؛ والمأثور عن أم المقتدر أنها كانت ترأس بنفسها المحكمة العليا ، كما كانت تجلس للمظالم ، وتستقبل الأشراف والسفراء الأجانب . والمعروف أن المجالس التى كانت تعقدها النساء المثقفات لم تعطل إلا فى عهد « المتوكل » ؛ وتقول لنا الرواية : إن النساء فى عهدى الرشيد والمأمون كن يناظرن الرجال فى شتى نواحى الثقافة والفكر ، و يشتركن فى نظم القصائد و بعث روح الحياة فى المجتمعات بكمالهن و بهائهن ، وكانت الملكة زبيدة سيدة موهوبة ، وشاعرة مثقفة ، وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها المفرغة فى أبيات شعرية إلى الرشيد ، وتدل القصيدة[٢] التى أرسلتها إلى المأمون بعد مصرع ولدها الأمين

(١) غير أن شهرة زرقاء اليمامة تؤيد لنا إعجاب العرب بالعيون الزرقاء .

(٢) ينسب ابن الأثير (ص١١٨ ج ٦) هذه القصيدة إلى خزيمة بن الحسن الذى رثى الأمين على لسان أمه زبيدة وهى تخاطب المأمون ، وفيما يلى بعض أبياتها :

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل سام فوق أعود منبر
لوارث علم الأولين وفهمهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعينى مستهل دموعها ... إليك ابن عمى من جفون ومحجر
وقد مسنى ضر وذل كآبة ... وأرق عينى يا ابن عمى تفكرى
وهمت لما لاقيت بعد مصابه ... فأمرى عظيم منكر جد منكر
سأشكو الذى لقيته بعد فقده ... إليك شكاة المستضيم المقتر
... ...

(المعرب)

على ذكاء خارق ، وشعور فياض . أما « بوران » فقد سبق أن ذكرنا خصالها . ويصف لنا مؤلف الأغانى عبيدة الطنبورية[١] التى عاشت فى عهد المأمون والمعتصم بأنها كانت على جانب عظيم من الجمال والفضيلة والذكاء ، وكانت تعزف بمهارة على الآلة التى عرفت باسمها ؛ كذلك تألق نجم « فضل » الشاعرة المشهورة فى عهد المتوكل ، ويلوح أنها عاشت فى قصره ردحا من الزمن حتى أعتقها فتزوجت وعاشت فى بغداد ، ويأتى شعرها فى الطبقة الأولى من الشعراء ؛ كما كانت فخر النساء « شهدة الكاتبة » — التى تألق نجمها فى القرن السادس الهجرى — تحاضر فى بغداد فى التاريخ والشعر ؛ وكانت أم المؤيد زينب التى عاشت فى حوالى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى ، ومنتصف السادس الهجرى[٢] معدودة من أشهر الفقهاء ، وقد أدركت جماعة من أعيان العلماء ، وأخذت عنهم رواية وإجازة ؛ وفى عهد صلاح الدين اشتهر ذكر تقية بنت أبى الفرج الشاعرة المشهورة ، وكانت تحاضر فى الحديث .

وبالرغم من الانحطاط الذى عم البلاد فى القرن الحادى عشر ، وانحلال الروابط الاجتماعية والسياسية فى آسيا الغربية كانت المرأة لا تزال ، وخاصة فى شيراز ، مثار إعجاب الفرسان ، ومحط العناية والاهتمام ، إذ كانوا يعتبرون الزواج رابطة مقدسة ، كما كانوا يعتبرون الأطفال وبالأخص البنين منهم نعمة من نعم الله ، وكان يوكل أمر تربيتهم إلى الأم فى بادئ الأمر ، فإذا ماشبوا عن الطوق أرسلوا إلى المدرسة أو الكتاب ، أما البنات فكن ينشأن على الفضيلة وصفاء السريرة[٣] .

الموسيقى

لم تكن الموسيقى فى العهد العباسى قد قاومها الفقهاء بعد ، فكان الرجال والنساء يعملان على رفع شأنها ، وكانت الأميرة علية ، وهى معروفة بفضلها

(١) كتاب الأغانى الجزء ٩ ص ١٣٤ .
(٢) ولدت سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) وتوفيت سنة ٦١٥هـ (١٢١٨ — ١٢١٩م) .
(٣) كتاب الاعتبار ص ١٠٠ .

وورعها إحدى شهيرات عصرها فى الموسيقى ، ولها ذوق سليم فى وضع الأنغام والألحان ، وقد شاد صاحب كتاب الأغانى[1] بتآليفها ، ولم يكن أخوها إبراهيم يقل عنها نبوغا وحذقا ، كما كان الخليفة الواثق عالما بالموسيقى مشهوراً بالعزف ، وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية يشتركن فى حفلات موسيقية خاصة تسمى « بنوبات الخاتون » ، وكانت فرقة العزف تتشكل من مائة عازف يديرها رئيس كما يديرها رئيس « الأوركسترا » فى العصر الحاضر ، أى بطريقة التلويح بالعصا طبق الألحان .

الأثاث والرياش

كان قد ذاع استعمال الكراسى والمقاعد فى العهد الأموى ، واقتنى العباسيون النمارق والديوان وهو عبارة عن مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها تفرش على جوانب الغرفة ، وكانوا يجلسون إلى الطعام على الديوان أمام مناضد مصنوعة من الأبنوس أو الصدف أو المحار . وكان للواثق خوان من الذهب توضع عليه صينية كبيرة مستديرة من الفضة أو النحاس ، مغطاة بقماش أبيض فيه صحاف الفضة الصينى ، فى حين كانت تستعمل عامة الناس صحاف النحاس ، وكانت توضع بجانب كل صحفة معالق من الصين أو الأبنوس مع الخبز ، أما الأشواك — التى كانوا يسمونها أنجال (وبالفارسية جنكال) — فلم يكن يستعملها سوى الأغنياء ، وكان يقدم (الشربت) وهو الشراب الاعتيادى فى أكواب من الزجاج ذات أغطية ، ويصنع من الماء والسكر الممزوج بمسحوق زهر البنفسج أو الورد والتوت أو القرصيا ، أما الخمر فكانوا يستحضرونها من التمور أو الزبيب . ويحدثنا المؤرخون أن الوزراء كانوا يعقدون فى منازلهم مجالس يحضرها القضاة والفقهاء لارتشاف كؤوس القهوة[2] . وقد استعملت كلمة (النديم) لأول مرة فى عهد الرشيد ولم تكن تحمل فى أطوائها أى معنى يحط من قيمتها ، وكان

(١) وهو أيضاً مؤلف تراجم الموسيقيات (كتاب القيان) .

(٢) يقال إن القهوة المصنوعة من البن لم تكتشف إلا فى سنة ٦٥٦هـ من قبل شخص اسمه الشيخ عمر على مقربة من مخا غير أنه لم يتم استعمالها إلا فى القرن التالى .

من أول واجباته تسلية مولاه بكياسته وظرفه وحسن تصرفه .

الألعاب

ومن بين الألعاب التى كانوا يتلهون بها داخل المنازل لعبة الشطرنج التى أدخلها الرشيد فى آسيا الغربية ، وانتشرت بسرعة عند العرب حتى حلت محل الورق والزهر ، ومنها أيضاً الرمى بالنشاب والصيد بالبندق ولعبة الجوكان والصولجان والجريد ، وكذلك سباق الخيل والمصارعة والمبارزة والقفز سواء على الأقدام أو على متون الخيل فى الميادين العامة أو المباراة (بالجريد) ، وكان المبارزة والسباق فى الحلبة شأن وأى شأن فى العاصمة والحواضر الكبرى .

كذلك كانوا يلعبون الصولجان والكريكيت والتنس ويسمونها لعبة « القراح » . أما النساء فكن يمارسن لعبة الرمى بالسهام ، ولم يكن الرقص فى بادىء الأمر مقصوراً على الطبقات المحترفة فحسب ، بل كثير من فتيات الطبقة الراقية كن يشتركن فى الرقص أيضاً ، بيد أن تكاثر الجوارى والراقصات المحترفات أدى إلى انحطاط مستوى الشعب بسرعة .

الصيد

كان الصيد تسلية للملوك والأعيان ، فكان الخلفاء العباسيون — ما عدا القليل منهم — مولعين بهذا الضرب من الرياضة ، وتدلنا الكتب التاريخية على أنهم كانوا إلى عهد « المستنجد » يقومون برحلات صيد منظمة ، ويقال إن حب صلاح الدين للصيد كاد يوقعه هو وأولاده ذات مرة فى قبضة الصليبيين ، وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير والفهود والغزلان على أنواعها والطيور والجوارح .

المجالس

وكانت المجالس الاجتماعية والحلقات الأدبية تعقد فى منازل الأعيان حيث كان يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة ، وفى عهد المأمون نشأت النوادى الأدبية التى كان يؤمها العلماء للبحث والمناظرة وبخاصة فى المواضيع الفلسفية ؛ ومع أنهم كانوا يلاقون ضروب الاضطهاد وبالأخص فى عهدى المتوكل والمعتضد إلا أنهم ظلوا يواصلون الاجتماعات ويزيدون فى ثروة الفكر الإنسانى حتى سقوط

بغداد ؛ وكان (الوراقون) بائعو الكتب يحتلون مركزاً مهماً فى الهيئة الاجتماعية فى ذلك الحين ، إذ كانت مكتباتهم ملجأ يقصده طلاب العلم والعلماء ، وفى تلك المكاتب بصفة كونها أماكن محايدة كان يجتمع فيها المعتزلة والأشعرية و يتجادلون فى القضاء والقدر والتجسيم و بعث الأرواح فى أشكالها الجسدية وما إلى ذلك ؛ ولم يكن أصحاب المكاتب يقتصرون على بيع الكتب فحسب بل كانوا أيضاً يعملون على نشرها بين الجمهور ، إذ كان فن الكتابة قد وصل إلى درجة عظيمة من الكمال ، بحيث أصبح فى الإمكان عرض أحسن الكتب على الجمهور بأثمان زهيدة لا تزيد على الدينار الواحد أو ما يساوى ثلاثة عشر شلنا وست بنسات .

ليس من السهل أن نلم فى الصفحات القليلة من هذا الكتاب بما أسداه العرب من الخدمات الجليلة إلى الفكر الإنسانى فى خلال الخمسة القرون ، ولكننا نرى مع ذلك أن هذا البحث لا يكون كاملا ما لم نأت على وصف موجز لما قام به العرب من الأعمال فى ترقية العالم ونهضته . وقد ذكرنا فيما تقدم مبلغ ازدهار الفنون والآداب والعلوم فى عهدى الرشيد والمأمون ، وسنقتصر فى البحث التالى على أهم خصائص الناحية الفكرية فى التاريخ العربى .

البوصلة البحرية

اخترع العرب البوصلة البحرية التى ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم طلباً للعلم أو الاتجار، فأسسوا المستعمرات من شاطىء أفريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندى وعلى سواحل الهند وجزيرة مالايا ، وتوغلوا فى بلاد الصين ، وغدت البصرة ثغراً تجاريا هاماً تتجر مع الهند وكاثاى ، واخترقت قوافلهم شمالى أفريقيا وصحراءها عن طريق المغرب ، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى أسبانيا وصقلية و إيطاليا وفرنسا ، وأصبحت طرابزون حلقة التجارة مع الدولة البيزنطية ، ونشطت قوافل بغداد إلى أواسط آسيا وشمال الهند بحذاء الخليج الفارسى ، وامتدت تجارتهم إلى بحر قزوين والبحر

الأسود ، وتغلغلوا فى روسيا حتى وصلت النقود العباسية إلى شواطىء البلطيق وداخل السويد .

اكتشافات العرب

كذلك اكتشفوا الآزور ، والمظنون أنهم وصلوا إلى أمريكا وقاموا فى القارات القديمة بحركة لم يسبق لها مثيل فى تشجيع مختلف النشاط الإنسانى ، وقد أوصى النبى العربى (ص) بأن يعمل المسلم لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وذكر أن الاجتهاد من الإيمان ، كذلك أوصى بمزاولة التجارة والزراعة ، وقد أثرت هذه التعاليم والأحاديث تأثيرها الطبيعى فى قلوب المؤمنين ، وكانت طبقات التجار والصناع والزراع ينالون ضروب الاحترام والتوقير ، ولم يكن الحكام والقواد وكبار رجال الدولة يستنكفون من أن يسموا بأسماء مهنهم التى كانوا يتهنونها من قبل .

أما رهط العلماء والأدباء الذين تألق نجمهم فى ذلك العهد الطويل ، فقد وجهوا همهم إلى جميع فروع الدراسات ، ولم يتركوا موضوعا إلا وأشبعوه بحثاً وتمحيصاً ، فألفوا فى النحو والآداب والبلاغة وفلسفة اللغات والجغرافية والحديث والرحلات ، كما ألفوا معاجم اللغة والتراجم ، وزادوا فى ثروة العالم التاريخية والشعرية ، وأضافوا إلى كنوز العلم أبحاثا جديدة ، كما شجعوا الحركة الفكرية بمناقشاتهم الفلسفية ؛ و إنا نجد المسيو « سيديو » لا يعدو الواقع فى قوله « إن الكنوز الأدبية العظيمة التى أوجدها العرب فى ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمى واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكرى ، وتؤيد الرأى القائل بأن العرب هم أساتذتنا فى كل شىء ، إذ أنهم زودونا بمواد جليلة القيمة فى تاريخ العصور الوسطى ، و بأسفار مجيدة فى التراجم ، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها ، وفنا معماريا آية فى الروعة والجمال ، واكتشافات هامة فى الفنون والصناعات » .

ومما هو جدير بالذكر أن العرب فى أثناء ذلك العهد واصلوا بحوثهم العلمية المختلفة بنشاط عظيم ، كما وجه أقدر العلماء جهودهم إلى الكيميا وعلم النبات والجيولوجيا والتاريخ الطبيعى ؛ ويعتبر أبو موسى جعفر الكوفى هو المؤسس الحقيقى لفن

الكيميا الحديثة ، وقد حذا حذوه رجال تثير أعمالهم المجيدة و إبداعهم وغزارة معلوماتهم ودقة ملاحظاتهم إعجاب أشهر علماء العصر الحاضر . ويقال إن علم الطب وفن الجراحة قد تطورا على أيديهم تطوراً هاما ؛ ولا ننسى كذلك أنهم هم الذين اخترعوا علم القربزين ، وإليهم يرجع تأسيس العيادات الخارجية ، وتشييد المستشفيات العامة التى أطلقوا عليها اسم دار الشفاء أو مارستان (مختصر بمارستان) .

كذلك أنشئت فى بغداد وفى معظم الحواضر حدائق فسيحة لدراسة علم النبات والأزهار، حيث كان أشهر العلماء يلقون المحاضرات على الطلاب . فكأن نهضة إحياء العلوم فى الدولة العباسية لم تكن إلا مظهراً من مظاهر النهضة العامة التى وسعت كل شؤون الحياة فيما بعد ، شأن نهضة (Reneissance) القرن التاسع عشر فى أوربا ، إذ قام العلماء برحلات إلى البلاد الأجنبية ودونوا حقائق هامة عن أهلها وأرضها ؛ ومن أشهرهم مسلم بن حمير[١] وجعفر بن أحمد المروى وابن فضلان وابن خرداذبة[٢] وجيهانى والمسعودى والأصطخرى[٣] وابن حوقل[٤] والبيرونى[٥] وياقوت الحموى[٦] صاحب معجم البلدان ، والبكرى والمقدسى والإدريسى .

وقد زار البيرونى[٧] بلاد الهند وأقام ردحا من الزمن بين أهلها حيث درس

---

(١) سنة ٨٤٥م .

(٢) عاش فى زمن المعتضد وتوفى حوالى سنة ٩١٢م .

(٣) عاش حوالى سنة ٩٥١م .

(٤) توفى حوالى سنة ٩٧٦م .

(٥) توفى فى غزنة سنة ١٠٣٨ م .

(٦) وله مؤلف معجم البلدان سنة ١١٧٥م ، وتوفى سنة ١٢٢٩م .
كان البكرى (أبو عبيد عبدالله) أندلسيا وقد توفى سنة ١٠٩٤م . وتوفى الأدريسى سنة ١١٦٤م .

(٧) كان أبو ريحان محمد بن أحمد من أهالى خوارزم ، وقد تألق نجمه فى عهد محمود ملك غزنة .

شتى لغاتهم ومختلف علومهم وفلسفاتهم وآدابهم ، وأطلع على تباين عاداتهم وأخلاقهم وقوانينهم وتعدد دياناتهم وخرافاتهم ، وأحوال بلادهم الجغرافية والطبيعية ، ثم صنف كتابا جمع فيه ما عن له من الملاحظات السديدة ، ومزجها بأقوال فلاسفة اليونان أمثال هوميروس وأفلاطون ، كذلك له عدة تواليف فى الفلك والرياضيات والجغرافية الطبيعية والكيميا والتاريخ والطبيعيات .

كذلك نبغ الرحالة المشهور والأديب المعروف ناصرى خسرو المولود فى قرية كوبديان ، فقد قام برحلته المشهورة فى سنة ١٠٤٦ م فزار نيسابور ، وقُم ، وتبريز ، وخلاط ، وحلب ثم الشام ، ومنها عرج على صور وصيدا والقدس ، ثم سافر إلى مصر فالحرمين والأحساء والبصرة ، ومن ثم قفل راجعاً إلى بلخ ، ويعد كتابه المسمى بالسفرنامه[1] (Safar Nameh) من أشهر كتب الرحلات فى جميع اللغات .

التاريخ

وقد كانت كتب التاريخ فى ذلك الحين من الضرورى أن تشتمل على علم الآثار والسلالات البشرية وخصائصها ، وقد تفرغ بعض قادة الفكر إلى هذه الدراسات ، ومنهم البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ — ٨٩٢م وهو مولود فى بغداد ، وفيها وضع كتبه العديدة ولا سيما « فتوح البلدان » الذى وضعه بأسلوب بارع يدل على أنه خطا خطوات واسعة فى تفهم روح التاريخ ؛ كذلك ألف الهمذانى الذى تألق نجمه فى أواخر القرن الثالث ومستهل القرن الرابع الهجرى — تاريخاً شاملا لجنوب جزيرة العرب فصل فيه أحوال القبائل وآثارها ، وعقد فصلا خاصا عن جغرافية اليمن ، وبحث فى سلالة سكانها ؛ وبالرغم من كل ذلك فإن نشاط الفكر العربى فى ذلك العهد يبدو لنا واضحاً جليا فى مؤلفات المسعودى والطبرى وابن الأثير ، وقد نبغ هؤلاء ومن خلفهم[2] من المؤلفين المشهورين

(١) طبع المسيو شيفر (Schefer) متنه بالفارسية وترجمته بالفرنسية مع الحواشى والتعليقات .

(٢) أمثال المقريزى وابن خلدون وأبى الفداء وأترابهم .

أمثال المقريزى وابن خلدون وأبى الفداء فى وضع الموسوعات والمصنفات الفلسفية والرياضية والجغرافية والتاريخية . وتقول الرواية : إن « المسعودى » من أسرة نشأت فى بغداد ، وإن كانت تنتسب فى الأصل إلى قبيلة من قبائل الشمال ، وتقوم معظم شهرته على طوافه فى أوائل شبابه فى معظم أنحاء العالم الإسلامى ، فزار الهند ومولتان والمنصورة وفارس وكرمان ، ثم قفل راجعاً إلى الهند حيث أقام مدى حين فى كمباجة والدكن ، ومنها شد الرحال إلى جزيرة سيلان ، ثم أبحر إلى كمبالو (مدغشقر) وعاد إلى عمان ، ولعله وصل إلى شبه جزيرة الصين الهندية و بلاد الصين ، ثم توغل فى أواسط آسيا ووصل إلى بحر قزوين ، و بعد أن قام برحلاته العديدة عاش مدة بطبرية وأنطاكية ، ثم عاد إلى البصرة حيث ألف كتابه المشهور « مروج الذهب » ، ثم نزل الفسطاط (القاهرة) حيث وضع « التنبيه ومرآة الزمان » وهو كتاب ضخم لم يبق منه إلا النزر اليسير ، وهو يذكر لنا فيه اختباراته الواسعة بأسلوب شيق جذاب ، يدل على أن صاحبه جاب أكثر أنحاء العالم واختبر الحياة حلوها ومرها ، كذلك اعتنى بوجه خاص بأن يكون كتابه خلواً من الأسانيد والإسهاب الممل ، كما ضمنه كثيراً من الحوادث المدهشة الجذابة ، وصور لنا أحوال الأمم وأخلاقهم ونوادرهم بمهارة نادرة المثال .

الطبرى

وهو يلقب « بأبى جعفر محمد بن جرير » المتوفى فى بغداد سنة ٩٢٢ م . وتاريخه مرتب على السنين ينتهى إلى حوادث سنة ٩١٤ م وقد زاد عليه ابن الأثير ما حدث بعده إلى نهاية القرن الثانى عشر .

ابن الأثير

وهو يلقب « بعز الدين » من أهالى جزيرة بنى عمر فى العراق ، ولكنه كان يقيم بضواحى الموصل حيث كانت داره الجميلة موئل الأدباء والعلماء . أما تاريخه العام المشهور « بالكامل » فينتهى إلى حوادث سنة ١٢٣١ وهو يضارع أحسن كتب التاريخ العصرية فى أوربا ، وللمؤلف أيضاً تاريخ « أتابكة » الموصل .

النجوم والفلك

نبغ العرب فى جميع مناحى الدراسات العلمية فاشتهر « ماشاء الله » و « أحمد

ابن محمد النهاوندى » أقدم فلكيي العرب فى عهد المنصور ، كذلك برع فى عهد المأمون فلكيون مشهورون أمثال « سند بن على » و « يحيى بن أبى منصور » و « خالد بن عبد الملك » ؛ ومن أعمالهم المأثورة أنهم رصدوا الكسوف والخسوف والاعتدال الشمسى وشبح المذنبات ، وظاهرات فلكية أخرى أضافت معلومات جديدة إلى ثروة الفكر الإنسانى ؛ و بأمر المأمون ترجم محمد بن موسى الخوارزمى كتاب السيد هنتا[1] أو الجدول الهندى بحركات الكواكب ؛ وألف الكندى مائتى كتاب فى مختلف المواضيع كالحساب والهندسة والفلسفة وعلم الظواهر الجوية والبصريات والطب ؛ وقد تخصص أبو معشر البلخى فى الرياضيات ، وتعمق فى علم النجوم وألف فيه كتباً كثيرة ، وظل حسابه المشهور باسمه من أعظم مراجع العلوم الفلكية ؛ وكان «موسى بن شاكر» مهندساً بارعا فى عصر الرشيد ، كما نبغ أولاده فى عهد المأمون والمعتصم والواثق ، واشتهروا فى علم النجوم وقاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار ، واستعملوا فيها محيط الأرض ، وقاموا باكتشافات مدهشة فى حركة الشمس و بعض الكواكب الأخرى ، وتحققوا من حجم الأرض وانحراف سمت الشمس ؛ أما « أبو الحسن » فقد اخترع آلة الرصد (التلسكوب) الذى يصفه بأنه أنبوب مثبت فى طرفيه عدسات ، وقد واصل « النايزرى » و « محمد بن عيسى أبو عبد الله » أبحاث « بنى شاكر » ، كذلك كان « البتانى »[2] فلكياً مشهوراً ترجمت حساباته الفلكية إلى اللغة اللاتينية ، واعتمد عليه العلماء فى أوربا عدة قرون ؛ ومن جملة الفلكيين المشهورين الذين عاشوا فى بغداد فى نهاية القرن العاشر « على بن أماشور » ، و « أبو الحسن على بن أماشور » المعروفان « ببنى أماشور » ، ومن مآثرهما

---

(١) جاء فى كتاب تراجم الحكماء « أن المنصور أمر بنقل كتاب « السيد هنتا » إلى العربية وأن يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزارى » . (المعرب)

(٢) توفى سنة ٩٢٩م .

احتساب حركات القمر . كذلك نبغ فى عهد « آل بويه » رهط من الفلكيين والأطباء والرياضيين أشهرهم « الكوهى » وأبو الوفاء ، فدرس الأول منهما حركة الكواكب ، وتعد اكتشافاته على أعظم جانب من الأهمية العلمية . أما أبو الوفاء فهو من أهل خراسان ولد سنة ٩٣٩ ، ووفد إلى العراق سنة ٩٥٩ ، وتفرغ لدراسة الرياضيات والفلك ، وهو الذى ابتكر الخط المماس المستعمل فى حساب المثلثات والرصد الفلكى .

وكان ابن يونس المتوفى سنة ١٠٠٩ فلكياً مشهوراً ورياضيا بارعا ، وقد واصل اكتشافاته كل من ابن النابدى المتوفى فى القاهرة سنة ١٠٤٠ ، والحسن ابن الهيثم المعروف فى أوربا بالهازن ، وقد تألق نجمه فى أواخر القرن الحادى عشر وكان فلكيا مشهوراً وعالما كبيراً ، ولد فى الأندلس ولكنه عاش فى مصر ، واشتهر فى أوربا بتآليفه فى علم البصريات التى ترجم أحدها إلى اللغات الأوربية ؛ ولا ننسى فى ختام هذا البحث عمر الخيام ، الشاعر العظيم ، والرياضى الفلكى المشهور .

الفلسفة

أما الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة فقد برع فيها العرب براعتهم فى علوم الفلك والرياضيات ، وأشهر من درس الفلسفة من العرب وأذاعها فى المشرق الكندى والفارابى وأبو على بن سينا ، ويعرف هؤلاء بأنهم أشهر فلاسفة العرب على وجه الإطلاق ؛ ويسمى « الكندى يعقوب بن أسحق[١] المتوفى سنة ٨٦١ م بفيلسوف العرب ، ويعرف « أبو نصر الفارابى[٢] المتوفى سنة ٩٥٠ عند العرب بأرسطو الثانى وهو معلم ابن سينا[٣] الذى كان من أعظم أبطال الفكر وأشهر الأطباء الذين أنجبهم العالم ، وهو معروف فى أوربا باسم (avicenna) وله شهرة عالمية واسعة .

(١) توفى سنة ٨٦١م .
(٢) توفى سنة ٩٥٠م .
(٣) توفى سنة ١٠٣٧ م .

الشعر

يصعب أن نقدم مجموعة تاريخية من الشعراء الذين نبغوا فى ذلك العصر ، ونظموا القصائد بالعربية والفارسية ، ويستطيع القارىء أن يراجع « الأغانى » و « ابن خلكان » لمعرفة جميع الشعراء المشهورين ، ولكنا نكتفى فى هذا المقام بسرد أسماء بعض الشعراء لندلل على خصوبة الفكر العربى[١] .

تألق نجم أبى نواس[٢] فى عهد الأمين وهو يعد فى طبقة امرىء القيس أحد الشعراء المشهورين فى الجاهلية ، ويليه فى المرتبة أبو تمام حبيب[٣] الذى يقول فيه « ابن خلكان » : « لقد فاق معاصريه فى صفاء الأسلوب وحسن الديباجة وبلاغة العبارة » ؛ كذلك نبغ البحترى فى القرن التاسع عشر ، فجمع ديوان الحماسة كأبى تمام ؛ غير أن أبا الطيب المتنبى[٤] فاق معظم المتقدمين من الشعراء وكان يتمتع بعطف سيف الدولة أمير الدولة الحمدانية فى الموصل . ومن بين الشعراء الذين نظموا بالفارسية الدقيقى والفردوسى فى عهد السلطان سنجار ، وفريد الدين الصيدلى الذى قتله التتر ، وجلال الدين الذى تألق نجمه فى عهد السلطان إبراهيم سلطان غزنة .

---

(١) تقسم الشعراء إلى أربع طبقات :

١ — الجاهليون ويمتازون بالبساطة والخشونة وأشهرهم أصحاب المعلقات .

٢ — المخضرمون وهم وسط بين البداوة والحضارة وأشهرهم حسان بن ثابت وكعب ابن زهير وجرير والأخطل والفرزدق . ويقول ابن خلدون : « لما جاء القرآن وشاع حفظه وعنى الناس بجمع الآداب ارتقت أذواقهم فى البلاغة ، ولذلك كان الشعراء الإسلاميون أعلى طبقة فى البلاغة من شعراء الجاهلية ، فشعر حسان بن ثابت ، وعمر بن أبى ربيعة ، والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذى الرمة والأحوص أرفع طبقة فى البلاغة والتفنن فى أساليب التعبير من شعر النابغة الذبيانى وعنترة العبسى وابن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة .

٣ — المولدون وهم معاصرو الرشيد والمأمون ، ويمتازون بالرقة والخلاعة وأشهرهم بشار بن برد وأبو العتاهية وأبو نواس وأبو تمام والبحترى .

٤ — وأما الطبقة الرابعة فهم الذين اشتهروا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلم الكلام وفى شعرهم صبغة فلسفية مثل المتنبى والمعرى والشريف الرضى وصفى الدين الحلى .
(المعرب)

(٢) ولد سنة ٧٦٣ م .

(٣) توفى سنة ٨٤٥ م .

(٤) قتل سنة ٩٦٥ م .

وكان أول من كتب فى التراجم « أبو الفرج محمد بن إسحق[١] » الملقب بابن النديم ، فأودع كتابه الفهرست ضروبا شتى من العلوم والمعارف ، وذكر عدة مؤلفين ومؤلفات مدللا على خصب الإنتاج الأدبى عند العرب ؛ ويعد كتاب ابن خلكان[٢] — المسمى بوفيات الأعيان — مجموعة فريدة من التراجم الممزوجة بمختلف الفوائد الأدبية والعلمية ؛ وكان سيف الدولة من أعظم مشجعى أبى الفرج على بن الحسين الأصفهانى[٣] مؤلف كتاب الأغانى المشهور ، وليس هذا الكتاب كما يدل اسمه مجموعة من الأغانى فحسب ، بل يحتوى أيضاً على تراجم جميع الذين ألفوا فى الأصوات وأشعارهم ، ويشتمل فوق ذلك على فوائد ذات بال فى تاريخ العرب وآدابهم .

الخط العربى

كان فن الخط العربى معروفا عند قريش قبل انتشار الإسلام بقليل ويقال إن الذى اخترعه هو « مورامير بن مراسا » من أهالى الأنبار قرب الحيرة ، ولما انتقل الخط إلى الحيرة تعلمه حرب[٤] بن أمية خلال زيارته لعاصمة المناذرة[٥] ثم علمه لجماعة من أهل مكة فانتشر بين قريش ، ويظهر أنه كان لسكان اليمن الحميريين أسلوب خاص فى الكتابة لعله كان صوتياً . ويقول ابن خلكان إن آل حمير كانت لهم كتابة خاصة تسمى بالمسند حروفها منفصلة غير مرتبطة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها ، ولم يكن ليجرؤ أحد على استعمالها دون إجازة ؛ فلما جاء الإسلام لم يكن فى اليمن من يعرف القراءة والكتابة .

وفى نهاية العهد الأموى تطور الخط الكوفى إلى عدة أشكال كان أعمها الخط النسخى ، وفى نهاية القرن العاشر ، ومستهل القرن الحادى عشر أدخل

---

(١) سنة ٩٨٧ م .
(٢) ولد سنة ١٢١١ م وتوفى سنة ١٢٨٢ م :
(٣) توفى سنة ٩٦٧ م .
(٤) هو جد معاوية بن أبى سفيان .
(٥) يقال إن معلمه اسمه اسلام بن سدرة .

الخطاطان العربيان المشهوران أبو الحسن المعروف بابن البواب وأبو طالب المبارك تحسينات جمة على الخط النسخى ، وفى عهد صلاح الدين ذاع خط عريض يسمى بالثلثى ، ويظهر أنه مأخوذ عن الخط النسخى والخط النستليق الفارسى .

المذاهب

تعددت المذاهب — كما كان متوقعاً — خلال ذلك العصر ، غير أن المذهب الرسمى للدولة كان المذهب الحنفى أو «الأشعرى» كما كان يسمى فى تلك الأيام ، غير أن الحنابلة كانوا يتغلبون على علماء الحنفية إذ كانوا يميلون إلى الشغب فاحتلوا بذلك مكانة سامية فى قلوب رعاع بغداد ، وأصبح لهم عليهم نفوذ لايقاوم ، وكان المذهب الشافعى ينتشر بين المتعلمين ، كما اعتنق الكثير من أهالى الشام وثغور فينيقية المذهب الشيعى ، وطفقوا يكتسحون أمامهم المذهب الحنبلى الصارم . ومن أعظم ميزات تاريخ الفلسفة الدينية فى القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) انتعاش حركة المذهب العقلى انتعاشاً غير اعتيادى ، ويرجع ذلك على الأرجح إلى تآليف المفكرين أمثال المسعودى والزمخشرى وإلى الفلاسفة أمثال الكندى والفارابى .

المعتزلة

حاول رجال المعتزلة أن يوفقوا بين العقيدة والعقل ، وبين الدين والفلسفة ، وقد صادفت هذه الحركة — بطبيعة الحال — هوى عند المستنيرين ، فأقبل أهل المذهب الحنفى الذين كانوا قد تمسكوا بعقيدتهم متأثرين ببعض النقاط المذهبية الاعتيادية على اعتناق مذهب المعتزلة[1] بباعث الآراء الفلسفية ، وقد

---

(١) يقول العالم المستشرق الفريد جيوم Alfred Guillaume فى رسالته عن الفلسفة والإلهيات فى كتاب Legacy of Islam حول مذهب الاعتزال مايلى :

وإن أجل خدمة قدمها المعتزلة للعالم المتمدين ، قامت على جهرهم بإخضاع الدين للنظر العقلى أكثر مما قامت على إصرارهم على اعتناق مذاهب معينة كالمبدأ الخالد الذى يقول بالعدل الإلهى ، فلم يكونوا ليرضوا بالصمت إذا قيل لهم « قال الله تعالى » مثلا ، بل أخذوا يتساءلون عن معنى « الله » ومعنى « قال » — وقد تجلى خطر مثل هذا الاتجاه عند هؤلاء النفر من الغلاة الذين ساروا فى منحى المعتزلة شوطا أبعد مما ينبغى حتى تردوا فى اللاأدرية — أى الإلحاد الصريح . (المعرب)

كان الميل برغم ذلك ينحو منحى الرجعية ، وبالأخص فى نهاية ذلك العصر .

جمعية إخوان الصفا

وفى تلك المرحلة الحرجة تألفت أول جمعية لنشر العلوم والفلسفة ، ذلك أن بعض المفكرين الذين يهمهم رفع منار الإسلام وشأن المسلمين رأوا أن علماء الدين قد تمسكوا بالقشور دون اللباب ، وأن الأغنياء قد تردوا فى لذائذ الحياة والشهوات ، وأن الفقراء غدوا متعصبين تعصباً أعمى ، فألفوا جمعية سرية [1] يستطيعون بواسطتها أن يرفعوا صوت الحق داويا بين الأهلين ، ويحولوا دون تدهور العالم الإسلامى وانحداره فى تيار الجهالة والتعصب ، وأطلقوا على جمعيتهم اسم (جمعية إخوان الصفا) ، وكان أول تأليفها فى البصرة ، وشروط [2] الانتماء إليها أن يكون العضو معروفا بحسن الأخلاق واتساع أفق التفكير ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم بأدب وتواضع فى منزل رئيس الجمعية « زيد بن رفاعة » للبحث فى المواضيع الفلسفية على أنواعها بحرية فكر ، ورحابة صدر نادرتى المثال حتى فى العصور الحديثة ، ثم أسسوا فروعا للجمعية فى جميع المدن والحواضر حيث يوجد المفكرون الذين يمتازون بالمؤهلات الكافية للاضطلاع بالعمل طبق طريقتهم العملية ؛ وكان نظامهم نظاما صوفياً راقياً ، كما كانت آراؤهم فى القضايا الاجتماعية والسياسية عملية اجتهادية ، فدونوا فلسفتهم وخلاصة آرائهم فى رسائل مستقلة جمعت فى كتاب فيما بعد ، وسمي « رسائل إخوان الصفا » ، وقد تضمنت هذه الرسائل شتى العلوم والدراسات كالرياضيات ، وتشتمل على الفلك والجغرافية الطبيعية ، والموسيقى والميكانيكيات والفيزيا ، وتشتمل على الكيمياء ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، وأوصاف الحيوانات (ومسقط النطفة ،

---

(١) جاء فى كتابهم أن أساس مذهبهم أن الشريعة الإسلامية تدنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية الحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . (المعرب)

(٢) جاء فى ذيل الرسائل فصل فى كيفية عشرة إخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة ، وأن الغرض منها التعاضد فى الدين . (المعرب)

وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس) والمنطق ، وقواعد اللغة ، وما وراء الطبيعة ، وعلم الأخلاق ، والبعث والنشور ، وعلى الجملة فإنهم جمعوا فى تلك الرسائل سائر أنواع العلوم والفلسفة المعروفة فى ذلك الزمان .

تدهور الممالك الإسلامية

وهكذا عندما تألق نجم ابن سينا فى الأفق ، وأقبل العالم الإسلامى يرتشف من معين آرائه العصرية فى العلوم الاجتماعية وفى غيرها من العلوم ، وعندما طفقت طلائع النهضة (الرنسانس) فى القرن الحادى عشر تبشر بأحسن النتائج وأوفرها خصوبة نشبت الحروب الصليبية الهائلة ، فحصر العالم الإسلامى جميع نشاطه فى ناحية واحدة ، وهى المحافظة على النفس ، ولكن لم تكد انتصارات زنكى ، ونور الدين ، وصلاح الدين تنقذ العالم الإسلامى من أخطار غزو الفرنج حتى هبت عاصفة التتر الهوجاء مكتسحة أمامها مدنية الشرق فقوضت أركانها وطمست معالمها .

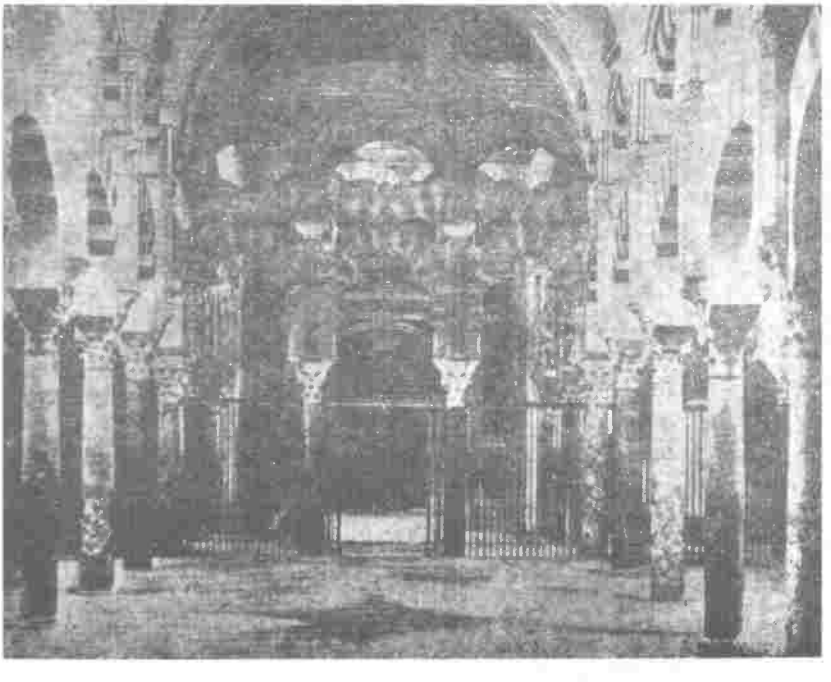

المحراب فى جامع قرطبة (انظر ص ٤١٠)